٢- صَبْرُ أَيُّوبَ

وَكَانَ رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ صَابِرًا شَاكِرًا يَلْهَجُ لِسَانُهُ بِالذِّكْرِ وَالشُّكْرِ، لَا يَشْكُو، وَلَا يَتَعَتَّبُ، وَلَا يَتَذَمَّرُ، وَلَا يَغْضَبُ، وَدَامَ عَلَىٰ ذٰلِكَ سِنِينَ طِوَالًا مُلْقًى عَلَىٰ كُنَاسَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَخْتَلِفُ الدَّوَابُّ فِي جَسَدِهِ.

٣- مِحْنَةٌ وَمِنْحَةٌ

وَلَمَّا تَمَّ مَا أَرَادَهُ اللّٰهُ مِنَ ابْتِلَاءٍ، وَمَا أَرَادَ بِهِ مِنْ تَكْمِيلٍ، وَرَفْعِ دَرَجَاتٍ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، أَلْهَمَهُ الدُّعَاءَ الْمُسْتَجَابَ، الَّذِي تَجَلَّىٰ فِيهِ عَجْزُهُ وَبُؤْسُهُ، وَأَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَافَاهُ اللّٰهُ فِي بَدَنِهِ وَأَهْلِهِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَبَارَكَ لَهُ فِي كُلِّ ذٰلِكَ، فَكَانَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، يَقُولُ اللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

«وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ

وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

٤ - قِصَّةُ يُونُسَ وَحِكْمَتُهَا

وَتَأْتِي قِصَّةُ يُونُسَ مَقْرُونَةً بِقِصَّةِ أَيُّوبَ ، مُؤَيِّدَةً لَهَا فِي إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ وَإِغَاثَتِهِ لَهُمْ ، حِينَ يَنْقَطِعُ الرَّجَاءُ ، وَيَنْشَى الْيَأْسُ الْقَاتِلُ وَالظَّلَامُ الْحَالِكُ ، وَتَنْسَدُّ جَمِيعُ الْمَنَافِذِ ، فَلَا نُورَ وَلَا هَوَاءَ ، وَلَا أَمَلَ وَلَا رَجَاءَ ، تَدُورُ رَحَى الْمَوْتِ قَوِيَّةً سَرِيعَةً تَطْحَنُ حَبَّةَ الْحَيَاةِ نَاعِمَةً دَقِيقَةً

هُنَالِكَ تَبْرُزُ يَدُ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، الْقَوِيَّةُ الْقَاهِرَةُ ، الرَّحِيمَةُ الْحَكِيمَةُ ، فَتُخْرِجُ هٰذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ مِنْ أَشْدَاقِ الْأَسَدِ الضَّارِي وَالْمَوْتِ الْفَاتِكِ ، فَيَخْرُجُ سَلِيمًا غَيْرَ مَخْدُوشٍ ، كَامِلاً غَيْرَ مَنْقُوصٍ ، كَأَنَّمَا كَانَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ فِي بَيْتِهِ مَحْفُوظاً بَيْنَ أَهْلِهِ .

٥ - يُونُسُ بَيْنَ قَوْمِهِ

وَهٰذِهِ قِصَّةُ يُونُسَ : بَعَثَهُ اللّٰهُ إِلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةِ « نِينَوَا » فَدَعَاهُمْ إِلَى اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ، وَتَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ مُغَاضِبًا لَّهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذٰلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَكْذِبُ ، خَرَجُوا إِلَى الصَّحْرَاءِ بِأَطْفَالِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ بَيْنَ الْأُمَّهَاتِ وَأَوْلَادِهَا ، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلَى اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَأَرُوا إِلَيْهِ ، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُصْلَانُهَا ، وَخَارَتِ الْبَقَرُ وَأَوْلَادُهَا ، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَسِخَالُهَا ؛ فَرَفَعَ اللّٰهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلَّآ قَوْمَ يُونُسَ ؏ لَمَّآ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝ » .

٦- يُونُسُ في بَطْنِ الْحُوتِ

وَأَمَّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْمٍ فِي سَفِينَةٍ ، فَجَنَحَتْ بِهِمْ ، وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ يُلْقُونَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ فَوَقَعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ يُونُسَ فَأَبَوْا أَنْ يُلْقُوهُ ، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَأَبَوْا ، ثُمَّ أَعَادُوهَا ، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ، قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ : «فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أَيْ فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ ، فَقَامَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ ، ثُمَّ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ حُوتًا يَشُقُّ الْبِحَارَ حَتَّىٰ جَاءَ ، فَالْتَقَمَ يُونُسَ حِينَ أَلْقَىٰ نَفْسَهُ مِنَ السَّفِينَةِ ، فَأَوْحَىٰ اللّٰهُ إِلَىٰ ذٰلِكَ الْحُوتِ أَنْ لَا تَأْكُلَ لَهُ لَحْمًا ، وَلَا تُهَشِّمَ لَهُ عَظْمًا [1].

---

(١) العبارة لابن كثير في [illegible] ...

٧- وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ

فَكَانَ فِي ظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ، فِي ظُلْمَةِ الْبَحْرِ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَمَا أَشَدَّ الظَّلَامَ! وَمَا أَبْعَدَ السَّلَامَ! وَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أَلْهَمَهُ اللَّهُ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تُبَدِّدُ الظُّلُمَاتِ، وَتَكْشِفُ الْكُرُبَاتِ، وَتَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَاسْمَعِ الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ الْغَرِيبَةَ الْفَرِيدَةَ، الَّتِي فِيهَا سَلْوَى لِكُلِّ بَائِسٍ مَلْهُوفٍ، وَيَائِسٍ مُضْطَرِبٍ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَرَأَى عِيَانًا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ:

«وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَٰتِ أَنْ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝».

قصة سيدنا زكريا عليه السلام

١- دعاء زكريا لولد صالح

وَلَوْنٌ آخَرُ مِنْ آلاءِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَآيَاتِ قُدْرَتِهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، تَجَلَّىٰ فِي دُعَاءِ زَكَرِيَّا لِوَلَدٍ صَالِحٍ رَضِيٍّ ، بَرٍّ تَقِيٍّ ، يَرِثُهُ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَيَقُومُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ، وَذٰلِكَ حِينَ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ ، وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ ، وَلَجَّ بِهِ الشَّيْبُ ، وَانْقَطَعَ الرَّجَاءُ مِنْ أَنْ تَلِدَ زَوْجُهُ ، فَأَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَهُ ، وَكَذَّبَ ظُنُونَ النَّاسِ ، وَأَبْطَلَ التَّجَارِبَ الْقَدِيمَةَ ، فَرَزَقَهُ وَلَدًا رَاشِدًا ، بَكَّرَ بِهِ النُّبُوغُ وَالْحِكْمَةُ ، وَالْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَالْكِتَابُ فِي الصِّغَرِ ، وَخُصَّ بِالْحَنَانِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَىٰ وَالْبِرِّ بِالْوَالِدَيْنِ ، وَالرِّقَّةِ وَلِينِ الْكَنَفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ.

وَرَبَطَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِ زَكَرِيَّا ، وَأَرَاهُ آيَاتٍ تَدُلُّ

عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَأَرَاهُ تَصَرُّفَهُ فِي خَلْقِهِ وَفِي أَعْضَاءِ جِسْمِهِ يُحَرِّكُ مَا يَشَاءُ وَيُعَطِّلُ مَا يَشَاءُ ، وَتَحَقَّقَ لَهُ أَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِيَدِهِ ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

٢- نَذْرُ امْرَأَةِ عِمْرَانَ

وَقَدْ نَذَرَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ - مِنْ أُسْرَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكَانَتِ امْرَأَةً صَالِحَةً تُحِبُّ اللهَ ، وَ تُحِبُّ دِينَهُ - أَنَّهَا إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا تَهَبُ هٰذَا الْوَلَدَ لِلّٰهِ : لِخِدْمَةِ دِينِهِ وَسَأَلَتِ اللهَ أَنْ يَتَقَبَّلَ هٰذَا الْوَلَدَ وَيَنْفَعَ بِهِ دِينَهُ وَعِبَادَهُ ، وَأَنْ يَكُونَ دَاعِيًا إِلَى اللهِ وَإِمَامًا مِّنْ أَئِمَّةِ الْهُدَىٰ .

٣- قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ

وَأَرَادَتِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَةِ عِبَادِهِ ، فَإِذَا هِيَ تَلِدُ أُنْثَىٰ ، فَتَحْزَنُ ،

لِذٰلِكَ وَتَغْشَاهُ الْكَآبَةُ ، وَلٰكِنَّ الْوَلِيدَةَ لَمْ تَكُنْ كَكُلِّ أُنْثَىٰ ، بَلْ كَانَتْ أَقْوَىٰ عَلَىٰ الْعِبَادَةِ ، وَأَعْلَىٰ هِمَّةً فِي الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، مِنْ كَثِيرٍ مِّنَ الْفِتْيَانِ ، وَإِذَا قَدَّرَ اللّٰهُ - لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا - أَنْ تَكُونَ أُنْثَىٰ ، وَالنُّبُوَّةُ لَا يَضْطَلِعُ بِأَعْبَائِهَا إِلَّا الرِّجَالُ ، فَقَدْ قَدَّرَ اللّٰهُ أَنْ تَكُونَ أُمًّا لِنَبِيٍّ صَالِحٍ يَكُونُ لَهُ شَأْنٌ :

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَٰنَ : رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ۖ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ۖ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ۝ » ،

٤ - عِنَايَةُ اللّٰهِ بِالْفَتَاةِ الصَّالِحَةِ

وَكَانَتْ فِي كَفَالَةِ سَيِّدِنَا زَكَرِيَّا لِمَكَانَتِهَا مِنْهُ ، وَفِي رِعَايَةِ اللّٰهِ تَعَالَىٰ ، فَكَانَ اللّٰهُ يُكْرِمُهَا بِالْأَثْمَارِ وَالْفَوَاكِهِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا وَفِي غَيْرِ مَكَانِهَا ، تَأْكُلُ مِنْهَا

مَا تَشَاءُ وَتَهَبُ مِنْهَا مَا تَشَاءُ :

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ، وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ : يَمَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

٥ - إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ

وَأَلْهَمَ اللَّهُ زَكَرِيَّا - وَهُوَ نَبِيٌّ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمِنَ الْعُقَلَاءِ الْأَذْكِيَاءِ - أَنَّ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُكْرِمَ فَتَاةً صَالِحَةً أَخْلَصَتْ أُمُّهَا فِي النَّذْرِ بِهَا وَالدُّعَاءِ لَهَا ، وَأَخْلَصَتْ هِيَ فِي الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، بِفَوَاكِهَ سَابِقَةٍ لِّزَمَانِهَا أَوْ مُتَأَخِّرَةٍ عَنْ أَوَانِهَا ، يَقْدِرُ أَنْ يَهَبَ شَيْخًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ وَعَلَاهُ الشَّيْبُ وَأَثَّرَ فِيهِ الْوَهَنُ ، وَلَدًا قَدِ انْقَطَعَ مِنْهُ الرَّجَاءُ لِعُلُوِّ السِّنِّ وَعُقْرِ الزَّوْجِ ، وَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لَا يُولَدَ لِرَجُلٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ .

فَجَاشَتْ نَفْسُهُ ، وَعَلَتْ هِمَّتُهُ ، وَانْتَعَشَ

الْأَمَلُ ، وَقَوِيَتِ الثِّقَةُ بِالرَّبِّ ، فَفَاضَ لِسَانُهُ بِدُعَاءٍ أَمَّنَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، وَتَحَرَّكَتْ بِهِ رَحْمَةُ اللهِ ، وَكَانَ كُلُّهُ إِلْهَامًا مِّنَ الرَّبِّ الرَّحِيمِ ، وَتَقْدِيرًا مِّنَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ :

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ج قَالَ : رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ج إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٥ » .

٦- بِشَارَةُ وَلَدٍ

وَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ الْبِشَارَةُ بِوَلَدٍ صَالِحٍ قَرُبَ زَمَانُ وِلَادَتِهِ .

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، فَطَلَبَ أَمَارَةً عَلَى إِمْكَانِ هٰذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ وَقُرْبِ ظُهُورِهِ ، فَقَالَ :

« رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ، قَالَ : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٥ » .

فَالْقَادِرُ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْلُبَ خَوَاصَّ الْأَشْيَاءِ ، فَيَجْعَلُ اللِّسَانَ النَّاطِقَ أَبْكَمَ لَا يَسْتَطِيعُ

أَنْ يَتَحَرَّكَ بِكَلِمَةٍ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُودِعَ مَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مَا شَاءَ مِنْ خَوَاصَّ ، وَالْقَوِيُّ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْطِيَ .

٧- آيَاتُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ

وَظَهَرَتْ آيَاتُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ فِي جِسْمِهِ ثُمَّ فِي بَيْتِهِ وَأُسْرَتِهِ ، وَوُلِدَ يَحْيَى فَقَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ أَزْرُهُ ، وَعَاشَتْ بِهِ دَعْوَتُهُ . وَاسْمَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ تَارَةً فِي إِيجَازٍ وَطَوْرًا فِي تَفْصِيلٍ ، فَيَقُولُ :

« وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ : رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَٰرِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ٥ » .

٨- يَحْيَى يَضْطَلِعُ

بأعباء الدعوة

وَيُولَدُ يَحْيَى فَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِأَبَوَيْهِ ، وَخَلِيفَةً

لِوَالِدِهِ الْعَظِيمِ ، فَيَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَإِلَى الدِّينِ الْخَالِصِ ، وَتَظْهَرُ فِيهِ آثَارُ النَّجَابَةِ مُنْذُ الصِّغَرِ ، فَيُقْبِلُ عَلَى الْعِلْمِ بِشَغَفٍ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَيَتَحَلَّى بِالصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَهُوَ شَابٌّ ، وَيَمْتَازُ عَنْ أَقْرَانِهِ فِي الْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالْبِرِّ بِالْأَبَوَيْنِ ، يُشَارُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ :

« يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ، وَكَانَ تَقِيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ » .

قصة سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام

١- قِصَّةٌ خَارِقَةٌ لِلعَادَةِ

وَيَجِيءُ دَوْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ ، وَهُوَ آخِرُ الرُّسُلِ قَبْلَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَهِيَ قِصَّةٌ تَجَلَّتْ فِيهَا إِرَادَةُ اللهِ الْقَاهِرَةُ ، وَقُدْرَةُ اللهِ الْمُطْلَقَةُ ، وَحِكْمَةُ اللهِ الدَّقِيقَةُ ، فَأَمْرُهُ كُلُّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ، وَوِلَادَتُهُ خَارِقَةٌ لِلْعَادَةِ ، حَارَتْ فِيهَا الْأَلْبَابُ ، وَنُسِخَتْ فِيهَا الْقَوَانِينُ الطَّبِيعِيَّةُ ، وَشَقَّ الْإِيمَانُ بِهَا وَالتَّصْدِيقُ لَهَا عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِالْقَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ كَإِلٰهٍ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ ، وَآمَنَ بِالتَّجْرِبَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَبِأَحْكَامِ الطِّبِّ وَالطَّبِيعَةِ كَنَامُوسٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ ، وَجَهِلَ قُدْرَةَ اللهِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَغَلَبَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِرَادَتَهُ الَّتِي لَا يَحُولُ دُونَهَا شَيْءٌ ، «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ» .

وَهَانَ هٰذَا الإِيمَانُ عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ كَإِلٰهٍ قَادِرٍ مُرِيدٍ، خَالِقٍ صَانِعٍ، «هُوَ اللّٰهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝».

وَآمَنَ بِخَلْقِ آدَمَ مِنْ مَاءٍ وَطِينٍ، وَمِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأَبٍ، وَوِلَادَةُ مَنْ أُمٍّ مِنْ غَيْرِ أَبٍ أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ لِلتَّصْدِيقِ مِنْ وِلَادَةٍ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأَبٍ، وَلِذٰلِكَ يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَىٰ: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ۝».

٢- أَمْرُ كُلُّهُ عَجَبٌ

وَأَمْرُ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ كُلُّهُ عَجَبٌ، وَقَدْ كَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي عَصْرٍ بَلَغَتْ فِيهِ «يُونَانُ» أَوْجَهَا فِي الْعُلُومِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ، وَكَانَتْ لِلطِّبِّ دَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ.

٣- خُضُوعُ الْيَهُودِ
لِلْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ

وَخَضَعَ الْيَهُودُ - وَهُمْ أُمَّةٌ كَثُرَ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ -

لِلعُلُومِ السَّائِدَةِ فِي عَصْرِهِمْ ، وَاشْتَهَرَ فِيهِمْ إِنْكَارُ الرُّوحِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا ، وَاعْتَادُوا أَنْ يُفَسِّرُوا كُلَّ مَا يَرَوْنَهُ تَفْسِيرًا مَادِّيًا ، فَلَا وُجُودَ لِشَيْءٍ عِنْدَهُمْ وَلَا إِمْكَانَ لِحَادِثٍ إِلَّا بِالسَّبَبِ وَالعِلَّةِ ؛ فَكَانَتِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي أَكْرَمَ اللّٰهُ بِهَا سَيِّدَنَا عِيسَىٰ عِلَاجًا لِلْعَقْلِ الْمَادِّيِّ الضَّيِّقِ ، وَحَاجَةَ الْعَصْرِ وَنِدَاءَ الزَّمَانِ .

وَأَمْعَنَ الْيَهُودُ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ الظَّاهِرِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْقُشُورِ دُونَ اللُّبَابِ ، وَالتَّشَبُّثِ بِالْمَظَاهِرِ دُونَ الْحَقِيقَةِ ، وَغَلَوْا فِي تَقْدِيسِ الْعُنْصُرِ وَالدَّمِ ، وَفِي حُبِّ الْمَالِ وَالْمَادَّةِ ، وَانْهَمَكُوا فِي الْحَيَاةِ انْهِمَاكًا زَائِدًا وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَجَفَّتْ طَبَائِعُهُمْ ، فَلَا يَرِقُّونَ لِلضَّعِيفِ وَلَا يَعْطِفُونَ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَيُعَامِلُونَ مَنْ لَا يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ الدَّمُ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُعَامَلَةَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْكِلَابِ أَوِ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا رُوحَ فِيهَا ، وَيَخْضَعُونَ لِلْأَقْوِيَاءِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَى الصِّغَارِ الْفُقَرَاءِ ، وَيَقْسُونَ عِنْدَ الْقُدْرَةِ ، وَيَلِينُونَ عِنْدَ الْعَجْزِ ، قَدْ وَلَّدَتْ فِيهِمْ حَيَاةُ الذُّلِّ

وَالعُبُودِيَّةِ الَّتِي عَاشُوهَا فِي الحُكْمِ الرُّومَانِي الَّذِي دَامَ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي سُورِيَا وَفِلَسْطِينَ ، النِّفَاقَ وَالخُنُوعَ ، وَالتَّحَيُّلَ وَالدَّهَاءَ ، وَاللُّجُوءَ إِلَى المُؤَامَرَةِ وَالسِّرِّيَّةِ .

٤- اسْتِخْفَافٌ وَتَمَرُّدٌ

وَوَلَّدَ فِيهِمُ الاِسْتِخْفَافُ بِالأَنْبِيَاءِ وَالاِجْتِرَاءُ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى بِالقَتْلِ ، وَالتَّعَامُلُ بِالرِّبَا ، وَالعَبَثُ بِالتَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ ، الغِلْظَةَ وَالجَفَافَ ، وَضَعْفَ العَاطِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَتَجَرَّدَتْ قُلُوبُ كَثِيرٍ مِّنْهُمْ مِّنْ حُبِّ اللهِ الخَالِصِ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَى الإِنْسَانِ - مَهْمَا كَانَ أَصْلُهُ وَفَصْلُهُ - وَاحْتِرَامِ الإِنْسَانِيَّةِ .

وَكَادُوا يَنْسَوْنَ مَعَانِيَ المُؤَاسَاةِ وَالمُسَاوَاةِ ، وَالبِرِّ وَالكَرَمِ ، وَكَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالنُّبُوَّاتِ وَالرِّسَالَاتِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمُ الأَنْبِيَاءُ ، وَزَخَرَتْ صُحُفُهُمْ بِأَخْبَارِهِمْ ، وَلٰكِنَّهُمْ قَدْ أَصْبَحُوا فِي الزَّمَنِ الأَخِيرِ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا وَافَقَ هَوَاهُمْ ، وَأَيَّدَهُمْ فِي سِيرَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، أَمَّا

مَنِ انْتَقَدَهُمْ وَحَاسَبَهُمْ ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الدِّينِ الصَّحِيحِ وَالْحَقِّ الصَّرِيحِ وَإِصْلَاحِ الْحَالِ ، عَادَوْهُ وَحَارَبُوهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُمْ جَرَاءَةٌ عَلَىٰ الْبُهْتِ وَالْإِفْتِرَاءِ ، وَكِتْمَانِ الْحَقِّ ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ .

٥ - نِعْمَةُ اللّٰهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ

وَكَانُوا أُمَّةً تَمْتَازُ عَنِ الْأُمَمِ الْمُعَاصِرَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ، وَذٰلِكَ سِرُّ تَفْضِيلِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ :

« يٰبَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰلَمِينَ ۝ » .

٦ - نُكْرَانٌ لِلْجَمِيلِ

وَلٰكِنْ تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ بِحُكْمِ الْاِخْتِلَاطِ وَمُجَاوَرَةِ الشُّعُوبِ الْوَثَنِيَّةِ الْمُشْرِكَةِ ، وَبِطُولِ الْعَهْدِ بِتَعَالِيمِ الْأَنْبِيَاءِ ، عَقَائِدُ زَائِفَةٌ ، وَعَادَاتٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَقَدْ عَبَدُوا

الْعِجْلَ فِي مِصْرَ، وَبَالَغُوا فِي تَقْدِيسِ عُزَيْرٍ وَتَعْظِيمِهِ، حَتَّىٰ تَخَطَّوْا بِهِ حُدُودَ الْبَشَرِيَّةِ، وَبَلَغَتْ بِهِمُ الْوَقَاحَةُ إِلَىٰ أَنْ نَسَبُوا بَعْضَ أَعْمَالِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَأَعْمَالِ السِّحْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْأَفْعَالِ الشَّنِيعَةِ، إِلَىٰ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَمْ يَتَّقُوا اللَّهَ فِيهِمْ .

٧- زَهْوٌ وَدَلَالٌ

وَكَانُوا رَغْمَ كُلِّ ذٰلِكَ شَدِيدِي الْإِدْلَالِ بِالنَّسَبِ، شَدِيدِي الْاِعْتِمَادِ عَلَىٰ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» . وَيَقُولُونَ: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً» .

٨- وِلَادَةُ الْمَسِيحِ تَتَحَدَّىٰ الْمَحْسُوسَ الْمَعْرُوفَ

وَكَانَتْ وِلَادَةُ الْمَسِيحِ وَحَيَاتُهُ، وَدَعْوَتُهُ وَمَعِيشَتُهُ، تَحَدِّيًا لِكُلِّ ذٰلِكَ، تَحَدِّيًا لِلْمَحْسُوسِ الْمُقَرَّرِ، تَحَدِّيًا لِلْأَعْرَافِ الشَّائِعَةِ، وَالْعَادَاتِ الْمُتَّبَعَةِ،

وَالْقَوَانِينِ الْمَرْسُومَةِ ، وَالْمُثُلِ الْعُلْيَا الَّتِي يُؤْمِنُ بِهَا الْيَهُودُ ، وَالْعَادَاتِ الَّتِي يَتَنَافَسُونَ فِيهَا ، وَيَتَقَاتَلُونَ عَلَيْهَا ؛ فَوُلِدَ مِنْ طَرِيقَةٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ ، وَكَلَّمَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، وَنَشَأَ فِي أَحْضَانِ أُمٍّ فَقِيرَةٍ مُتَبَتِّلَةٍ ، وَعَاشَ فِي جَوٍّ مَلِيءٍ بِالطَّعْنِ وَالْقَدْحِ ، بَعِيدٍ عَنْ مَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ وَالْغِنَى ، يُجَالِسُ الْفُقَرَاءَ ، وَيُؤَاكِلُهُمْ ، وَيَحْنُو عَلَيْهِمْ ، وَيُوَاسِي الضُّعَفَاءَ وَالْغُرَبَاءَ ، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ ، وَحَاكِمٍ وَمَحْكُومٍ ، وَشَرِيفٍ وَوَضِيعٍ .

٩ - مُعْجِزَاتُ الْمَسِيحِ

وَأَكْرَمَهُ اللهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ ، وَآتَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَأَيَّدَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، يَشْفِي اللهُ بِهِ الْمَرْضَى الَّذِينَ عَجَزَ عَنْ مُدَاوَاتِهِمُ الْأَطِبَّاءُ ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَخْلُقُ لِلنَّاسِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ ، فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيُنَبِّئُ بِمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ

وَيَدَّخِرُونَهُ فِي بُيُوتِهِمْ .

فَيُعِيدُ بِكُلِّ ذٰلِكَ الثِّقَةَ بِمَا جَاءَ فِي التَّوْرَاةِ مِن خَبَرِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ ، وَأَخْبَارِ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَيُجَدِّدُ الْإِيمَانَ بِهَا ، وَيُكَذِّبُ الْعِبَادَةَ لِلْحِسِّ وَالتَّجْرِبَةِ ، فَقَامَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ سَعَةَ الْقُدْرَةِ الْإِلٰهِيَّةِ ، وَقُوَّةَ الْإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، فَقَرَّرُوا أَنْ لَا جَدِيدَ وَأَنْ لَا مَزِيدَ فِيمَا عَلِمُوهُ وَشَاهَدُوهُ .

١٠- دَعْوَتُهُ إِلَى الدِّين وَتَكْذِيبُهُ الْيَهُودَ

وَكَذَّبَ الْيَهُودَ فِي كَثِيرٍ مِّمَّا تَخَيَّلُوهُ وَغَلَوْا فِيهِ ، وَحَرَّمُوا مَا أَحَلَّهُ اللّٰهُ ، وَأَحَلُّوا مَا حَرَّمَهُ اللهُ ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رُوحِ الدِّينِ وَلُبَابِهِ ، وَأَصْلِهِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَالْحُبِّ لِلّٰهِ حُبًّا يَغْلِبُ عَلَىٰ كُلِّ حُبٍّ ، وَالرَّحْمَةِ عَلَىٰ الْإِنسَانِيَّةِ وَاحْتِرَامِهَا ، وَالْمُوَاسَاةِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ ، وَرَفْضِ كُلِّ مَا دَخَلَ عَلَىٰ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عَادَاتٍ جَاهِلِيَّةٍ ، وَعَقَائِدَ بَاطِلَةٍ .

١١- اليَهُودُ يَنْصِبُونَ لَهُ الحَرْبَ

وَشَقَّ كُلُّ ذٰلِكَ عَلَى الْيَهُودِ، وَنَصَبُوا لَهُ الْحَرْبَ، وَرَمَوْهُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَرَشَقُوهُ بِالتُّهَمِ وَالْقَذَائِفِ، وَتَنَاوَلُوهُ بِالسَّبِّ الْقَبِيحِ وَالْقَوْلِ الْبَذِيءِ، وَتَنَاوَلُوا أُمَّهُ مَرْيَمَ الْبَتُولَ بِالْقَذْفِ وَالطَّعْنِ، وَعَاكَسُوهُ وَطَارَدُوهُ، وَأَهَاجُوا لَهُ الْأَوْبَاشَ، وَسَدُّوا فِي وَجْهِهِ الطُّرُقَ.

١٢- قِصَّةُ عِيسَىٰ فِي الْقُرْآنِ

ثُمَّ أَرَادُوا قَتْلَهُ وَالتَّخَلُّصَ مِنْهُ، فَحَمَاهُ اللهُ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ وَكَرَّمَهُ، اِقْرَؤُوا قِصَّتَهُ فِي الْقُرْآنِ:

«إِذْ قَالَتِ الْمَلٰٓئِكَةُ يٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْاٰخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَّمِنَ الصّٰلِحِينَ ۝ قَالَتْ: رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ

لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، قَالَ: كَذٰلِكِ اللّٰهُ يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ ○ وَيُعَلِّمُهُ
الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرٰىةَ وَالْإِنْجِيلَ ۞ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ۞ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ ۙ أَنِّي أَخْلُقُ
لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ
اللّٰهِ ۚ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ ۚ
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ
لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ○ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ
مِنَ التَّوْرٰىةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ،
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ ۚ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ ○ إِنَّ
اللّٰهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ○ فَلَمَّا
أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ: مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللّٰهِ ۚ
قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ ۚ آمَنَّا بِاللّٰهِ ۚ وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ○ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشّٰهِدِينَ ○ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللّٰهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمٰكِرِينَ »
« إِذْ قَالَ اللّٰهُ: يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ز وَمَا لَهُم
مِّن نَّاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ
مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ
كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ: كُن فَيَكُونُ،
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝»

١٣- سِيرَتُهُ ودَعْوَتُهُ فِي الْقُرْآنِ

وَاقْرَأُوا وَصْفَهُ تَعَالَىٰ لِسِيرَتِهِ وَدَعْوَتِهِ، فِي قَوْلِهِ:
«قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ز وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝».

١٤- صِرَاعٌ قَدِيمٌ

وَوَقَعَ لِسَيِّدِنَا عِيسَىٰ مَا وَقَعَ لِلأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، فَابْتَعَدَ عَنْهُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ، وَهَجَرَهُ الأَغْنِيَاءُ وَالأَقْوِيَاءُ، وَرَأَوْا فِي الإِيمَانِ بِهِ وَاتِّبَاعِهِ غَضَاضَةً وَعَيْبًا، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ التَّنَازُلُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، مِنْ رِئَاسَةٍ وَزِعَامَةٍ، وَامْتِيَازٍ وَسِيَادَةٍ، وَصَدَقَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ۝ وَقَالُوا: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝».

١٥- إِيمَانُ عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ

وَلَمَّا يَئِسَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ، وَشَاهَدَ فِيهِمُ العِنَادَ وَالكُفْرَ، وَرَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ جَحَدُوا بِمَا جَاءَ بِهِ، مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَاهِرَاتٍ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، وَاسْتَصْغَرُوهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ، أَقْبَلَ

عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ ، وَقَدْ لَانَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَصَفَتْ نُفُوسُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ بِكَدِّ يَمِينِهِمْ وَعَرَقِ جَبِينِهِمْ ، لَا يَتَفَاخَرُونَ بِنَسَبٍ ، وَلَا يَتَطَاوَلُونَ بِجَاهٍ وَمَنْصِبٍ ، فَآمَنَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ، فِيهَا الْقَصَّارُونَ ، وَفِيهَا صَيَّادُو الْأَسْمَاكِ ، وَفِيهَا أَهْلُ الْحِرَفِ وَالْمِهَنِ .

١٦- نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ

فَآمَنُوا بِالْمَسِيحِ ، وَالْتَفُّوا حَوْلَهُ ، وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي يَدِهِ ، وَقَالُوا : «نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ» يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى :

«فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِيٓ إِلَى اللّٰهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللّٰهِ ، آمَنَّا بِاللّٰهِ ، وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥ رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّٰهِدِينَ ٥» .

١٧- سِيَاحَتُهُ وَدَعْوَتُهُ

وَكَانَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ يَقْضِي أَكْثَرَ أَوْقَاتِهِ فِي

السِّيَاحَةِ ، وَالْإِنْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، يَدْعُو بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَىٰ اللهِ ، وَيَهْدِي خِرَافَهُمُ الضَّالَّةَ إِلَىٰ رَبِّهَا وَ سَيِّدِهَا ، وَيَتَّفِقُ لَهُ فِي هٰذِهِ الْجَوْلَاتِ وَالرِّحْلَاتِ الْيُسْرُ وَالْعُسْرُ ، وَالضِّيقُ وَالرَّخَاءُ ، وَيَتَحَمَّلُ ذٰلِكَ صَابِرًا ، وَيَقْبَلُ هٰنَا شَاكِرًا ، وَيَصْبِرُ عَلَىٰ الْجُوعِ ، وَيَجْتَزِئُ بِمَا يَسُدُّ الرَّمَقَ .

١٨- الْحَوَارِيُّونَ

يَطْلُبُونَ مَائِدَةَ السَّمَاءِ

أَمَّا الْحَوَارِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا بِمَنْزِلَتِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالزَّهَادَةِ ، وَأَصَابَهُمْ شَيْءٌ مِّنْ ذٰلِكَ ، فَطَلَبُوا مِنْ سَيِّدِنَا عِيسَىٰ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يُنْزِلَ لَهُمْ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَشْبَعُونَ بَعْدَ جُوعٍ ، وَيَنْعَمُونَ بَعْدَ عَنَاءٍ .

١٩- سُوءُ أَدَبٍ

وَلَمْ يَكُونُوا مُتَأَدِّبِينَ فِي سُؤَالِهِمْ ، فَقَالُوا : «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ

وَلَمْ يُعْجِبْ عِيسَىٰ سُؤَالُهُمْ ، وَكَرِهَ الأُسْلُوبَ الَّذِي خَاطَبُوا بِهِ. وَالأَنْبِيَاءُ جَمِيعًا يُطَالِبُونَ أُمَمَهُمْ بِالإِيمَانِ بِالغَيْبِ ، وَيُكَلِّفُونَهَا إِيَّاهُ ، وَلَيْسَتِ المُعْجِزَاتُ مَخَارِيقَ يُسَلَّىٰ بِهَا الأَطْفَالُ ، وَيُلْهَىٰ بِهَا الأَغْمَارُ ، وَإِنَّمَا هِيَ آيَاتٌ مِّنَ اللهِ يُظْهِرُهَا عَلَىٰ أَيْدِي أَنْبِيَائِهِ حِينَ يَشَاءُ ، وَتَقُومُ بِهَا حُجَّةُ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ ؛ فَلَا يُمْهَلُونَ بَعْدَ ظُهُورِهَا وَإِنْكَارِهَا.

٢٠- تَحْذِيرُ قَوْمِهِ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ

لِذَلِكَ خَافَ سَيِّدُنَا عِيسَىٰ عَلَيْهِمْ ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ امْتِحَانِ اللهِ تَعَالَىٰ ؛ فَهُوَ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ مِنْ ذَلِكَ .

٢١- إِلْحَاحٌ وَإِصْرَارٌ

وَلَكِنَّ الحَوَارِيِّينَ تَشَبَّثُوا بِسُؤَالِهِمْ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ جَادُّونَ فِي هَٰذَا السُّؤَالِ ، لَا يَقْصِدُونَ امْتِحَانًا ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ اطْمِئْنَانًا ، وَلِيَكُونَ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلأَجْيَالِ القَادِمَةِ ،

وَقِصَّةٌ تُحْكَىٰ وَتُرْوَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْأَيَّامِ، فَتَكُونُ دَلِيلاً عَلَىٰ صِدْقِ هٰذَا الدِّينِ، وَمَنْزِلَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِينَ، وَالْحَوَارِيِّينَ الصَّادِقِينَ.

٢٢- الْقُرْآنُ يَحْكِي الْقِصَّةَ

وَ دَعُوا الْقُرْآنَ يَحْكِي هٰذِهِ الْقِصَّةَ:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ۖ قَالَ: اتَّقُوا اللّٰهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِينَ ۝ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَاٰخِرِنَا وَاٰيَةً مِّنْكَ ۚ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ ۝ قَالَ اللّٰهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۚ فَمَنْ يَّكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعٰلَمِينَ ۝﴾.

٢٣ - اليهودُ يحاولون التخلُّص مِنْ سَيِّدِنا عِيسَى

وَعِيلَ صَبْرُ اليهودِ، وَفَاضَتْ كَأْسُ عِدائِهِمْ وَعِنادِهِمْ، فَأَرادُوا التخلُّصَ مِنْ سَيِّدِنا عِيسَى، فَرَفَعُوا قَضِيَّتَهُ إِلَى الحاكِمِ الرُّومِيِّ وَقَالُوا: إِنَّهُ رَجُلٌ ثَائِرٌ فَوْضَوِيٌّ مَرَقَ مِنْ دِينِنا، وَاسْتَهْوَى شَبَابَنَا، فَفُتِنُوا بِهِ، وَفَرَّقَ أَمْرَنَا، وَسَفَّهَ أَحْلامَنَا، وَشَغَلَ بَالَنَا.

٢٤ - أُسْلُوبُ النَّاقِمِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ

وَهُوَ خَطَرٌ عَلَى الدَّوْلَةِ، لا يَخْضَعُ لِنِظَامٍ، وَلا يَتَقَيَّدُ بِقَانُونٍ، وَلا يُعَظِّمُ عَظِيمًا، وَلا يُقَدِّسُ قَدِيمًا، وَهُوَ رَجُلٌ ثَوْرِيٌّ، إِذَا لَمْ يُكَفَّ شَرُّهُ فَإِنَّهُ يَتَفَاقَمُ، وَلا تُسْتَصْغَرُ الشَّرَارَةُ مَهْمَا كَانَتْ تَافِهَةً.

٢٥ - مَكْرٌ وَدَهَاءٌ

وَكَانَ كَلامًا مَمْلُوءًا بِالمَكْرِ وَالدَّهَاءِ، مَصْبُوغًا

بِالصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَكَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّ الْجَانِبَ الدِّينِيَّ لَا يُثِيرُ الْحُكَّامَ وَلَا يُهِيجُهُمْ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ سِيَاسَتِهِمْ أَنْ لَا يَتَدَخَّلُوا فِي أُمُورِ الْيَهُودِ الدِّينِيَّةِ ، وَلِذٰلِكَ خَلَطُوا الْكَلَامَ بِالسِّيَاسَةِ .

٢٦- مُشْكِلَةٌ

وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَتَحَقَّقَ الْحُكَّامُ الْأَجَانِبُ الْمُشْرِكُونَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ ، وَيَعْرِفُوا أَغْرَاضَ الْيَهُودِ ، وَسَبَبَ عِدَائِهِمْ لِلْمَسِيحِ ، وَكَانُوا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْ ذٰلِكَ بِالْأُمُورِ الْإِدَارِيَّةِ ، وَلٰكِنِ اشْتَدَّ إِلْحَاحُ الْيَهُودِ ، وَطَالَ تَرَدُّدُهُمْ فَأَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ حَدِيثَ الْبَلَدِ .

٢٧- سَيِّدُنَا الْمَسِيحُ فِي الْمَحْكَمَةِ

وَكَانَ ذٰلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ وَكَانَ الْيَهُودُ لَا يَعْمَلُونَ شَيْئًا يَوْمَ السَّبْتِ ، وَكَانَ يَوْمَ عُطْلَةٍ وَكَفٍّ عَنِ الْعَمَلِ ، فَكَانُوا حَرِيصِينَ كُلَّ الْحِرْصِ

عَلَى أَنْ يَصْدُرَ الْحُكْمُ قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ أَمْرِ الْمَسِيحِ، فَيَنَامُوا هَادِئِي الْبَالِ، وَيُصْبِحُوا نَاعِمِي الْبَالِ، لَا يُزْعِجُهُمْ شَيْءٌ.

وَقَدْ ضَاقَ الْحَاكِمُ بِالْقَضِيَّةِ ذَرْعًا، وَلَيْسَتْ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ وَلَا لِأُمَّتِهِ فِيهَا مَصْلَحَةٌ، وَقَدِ احْتَشَدَ الْيَهُودُ لِسَمَاعِ الْحُكْمِ، وَهُمْ بَيْنَ صَائِحٍ وَهَاتِفٍ، وَمُتَنَدِّرٍ وَمُتَهَكِّمٍ، وَالْحَاكِمُ مُتَضَايِقٌ، وَالْوَقْتُ قَصِيرٌ، وَالشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ لِلْغُرُوبِ، فَأَصْدَرَ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ صَلْبًا.

٢٨- الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ

فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ

وَكَانَ الْقَانُونُ الْجِنَائِيُّ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ يُوجِبُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِالشَّنْقِ، صَلِيبَهُ الَّذِي يُصْلَبُ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْمَشْنَقُ بَعِيدًا كَمَا هِيَ الْعَادَةُ فِي الْبِلَادِ الْمُتَمَدِّنَةِ، وَكَانَ الْجَمْعُ حَاشِدًا يَتَسَاقَطُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَكَانَ رِجَالُ الشُّرْطَةِ - وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ

الأَجَانِبِ - مَأْمُورِينَ مُوَظَّفِينَ لاَ رَغْبَةَ لَهُمْ فِي هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَكَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ أَشْبَاهًا عِنْدَهُمْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُمْ، فَلاَ يُمَيِّزُونَ بَيْنَهُمْ ، شَأْنَ الأَجَانِبِ فِي نَظَرِ الْأَجَانِبِ ، وَ كَانَ الْوَقْتُ مَسَاءً قَدْ مَدَّ الظَّلاَمُ رُوَاقَهُ ، وَكَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ وَالْمُتَحَمِّسِينَ السُّفَهَاءِ مِنَ الشَّبَابِ يَنْهَالُونَ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ ، وَيَتَدَافَعُونَ عَلَيْهِ ، يَسُبُّونَهُ ، وَيُعَيِّرُونَهُ ، وَيُرِيدُونَ إِيذَاءَهُ وَإِهَانَتَهُ .

٢٩- عِيسَى يَتَحَمَّلُ الْأَذَى

وَكَانَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ لاَغِبًا ، قَدْ أَضْنَاهُ الْجُهْدُ، وَطُولُ الْوُقُوفِ فِي الْمَحْكَمَةِ ، وَتَحَمُّلُ الْأَذَى، وَكَانَ الصَّلِيبُ ثَقِيلاً، وَقَدْ كُلِّفَ حَمْلَهُ ، فَكَانَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسْرِعَ فِي الْمَشْيِ.

٣٠- تَدْبِيرٌ إِلٰهِيٌّ

وَهُنَا أَمَرَ الشُّرْطِيُّ الْمُوَكَّلُ بِهِ ، شَابًّا إِسْرَائِيلِيًّا